الشبكة الأرثوذكسية العربية الأنطاكية www.orthodoxonline.org

الروح القدس حياة الكنيسة

للأب بوريس بوبرينسكي

أرثوذكس تيوب www.orthodoxtube.org

الأب بوريس بوبرينسكي إستاذ في معهد القديس سرجيوس اللاهوتي الأرثوذكسي في باريس . وقد نُشر مقاله هذا أولاً باللغة الفرنسية في مجلة « كونتاكت » الأرثوذكسية الصادرة في باريس ، عدد ٥٥ سنة ١٩٦٦ ، ونقله ريمون رزق الى العربية بتصرّف.

الروح القدس في العنصرة

إن الحدث الكبير الذي خُتم ، في العهد الجديد ، بالفصح الدموي المجيد للكلمة المتجسد والذي ، كالصاعقة ، حوّل كلياً جماعة تلاميذ يسوع وأصدقاءه الأوفياء لذكراه إلى كنيسة هي كنيسة الله ، الشعب المختار ، الكهنوت الملوكي ، المقدّس بدم يسوع المسيح ، هذا الحدث هو حلول الروح القدس ، في العلّية ، صباح العنصرة .

كل غنى تعليم الأنبياء والكتّاب الملهمين عن روح الله ، كذلك أقوال يسوع نفسه عن المجيء القريب الضروري للروح القدس ، المعزّي ، روح الحق ، كل هذا التعليم لم يصبح حقيقة معاشة إلا عندما أتى المُعلَن عنه والمنتظر ، وحلّ بشكل ألسنة نارية على كل عضو من الجماعة الرسولية بصورة شخصية . عندئذ فقط تثبّتت الكنيسة المعمّدة بدم

المسيح والمتجددة بواسطته ، و دخلت في الحياة الجديدة التي هي حياة الروح القدس ، حياة في روح الله . . .

الروح القدس في العهد القديم و في الأناجيل

يصعب علينا أن نتكلم عن الروح القدس ، و أن نصف سر هذا الذي لا نعرف حتى مجرد اسمه ، أو بالأحرى الذي نجده يعلن عن ذاته بأسماء عديدة : الريح ، النفخة ، المسحة ، الحمامة ، الروح ، القدوس ، المعزي ، اللهيب ، الغمامة ، النور ، السلام ، الفرح ، الشركة ، المحبة . . .

لم يُعرِّف الكتاب المقدس الروح القدس لكنه يصفه في أعماله ، ومن خلال عمله يظهر وجهه السرّي غير المدرك معلناً حياة الثالوث و أقانيمه .

ان كلمة « روح » تشير إلى حركة الهواء أو الريح أو النسيم أو العاصفة أو النفخة القوية العنيفة المخيفة القادرة أن تُلقي بالأشياء أو تقذف بها . كما انها تشير أيضاً إلى ريح خفيف تكاد لا تشعر به لولا حفيف وريقات الشجر ، لأنه « قصبة مرضوضة لا يكسر وشعلة ذابلة لا يُطفىء » (أشعياء ٤٢ : ٣ ، متى ١٢ : ٢٠) . وهي حقيقة صعبة الإدراك ،

غير هيولية لكنها ملموسة ، محيية ومنعشة .

يظهر لنا الكتاب أن روح الله يفعل في العالم دائماً بالإشتراك مع الكلمة . كلمة الله هو المدبّر للنظام الكوني وعلّة الأشياء الداخلية . هو الألف والياء الكوني . وهو أيضاً مدبِّر الإنسان والموجِّه له في رسالته لكي يكون سيداً للكون وملكاً عليه ورئيس كهنة فيه . هذا هو معنى وجود كلمة الله في الخليقة ، في صميم الإنسان ، مكوّناً فيه مبدأ الصلاح والحق والجمال بل الكيان نفسه . وكذلك يوجد الروح في الإنسان لكن بطريقة أكثر تحركاً ، مالئاً ما هو في مجال المنطق بالحياة ، مكوّناً في الإنسان قدرة التوق إلى الحق . وهو أيضاً الجمال الداخلي لكل امرىء أو وجه أو شكل أو حركة .

يساهم روح الله مع كلمة الله في خلق العالم ، فهو يغطي المياه الأولية ويحييها بقدرته الوالدية ، غارساً بذرة الحياة ، باثاً في المادة الجامدة حرارتها . وعند إشراق الإنسان إلى الوجود والفهم تلبية لنداء كلمة الآب الكلي القدرة ، ينفخ روح الله فيه قدرة الحياة ، نفخة الحياة الآتية من الله والمحرّكة للتراب . الروح القدس يجسّد صورة الله

في الإنسان ويكرّسه في مجده الملوكي موجّهاً إياه نحو دعوة الآب للطاعة البنوية .

أمّا عند السقوط و في زمن التأديب والعناية الإلهية ، فالروح هو هذا الصوت الداخلي الذي يدعو الإنسان باستمرار للرجوع إلى ينابيعه مذكراً إياه بمصيره . انه صوت داخلي يتمتم : « تعال إلى الآب » حسب قول القديس اغناطيوس الإنطاكي ، وقلق يُشغل الإنسان مقتلعاً إياه من اكتفائيته بذاته .

كل تاريخ إسرائيل ، قبل زمن الكنيسة ، هو تاريخ تأديب الله لشعب « قاسي القلب » اختاره ، أحبه ، خطبه لنفسه في الصحراء و اعلن له كلمته بواسطة الأنبياء . يد الله تظهر من خلال شبكة الأحداث التاريخية في دعوة الأنبياء وصوتهم الناقل كلمة الله . نجد هنا أيضاً روح الله ، فهو يملأ الأنبياء ، موحياً إليهم بما يقولون ، مقوّياً إياهم للشهادة ، ساكناً في الشعراء والمرنمين . وهو الذي يوجّه الشعب . . . مؤمّناً بذلك تخميراً بطيئاً لبذرة الحياة ، جاعلاً إياه في انتظار للمخلّص يزداد مع الوقت إلحاحاً و ألماً ،

انتظار للأزمنة الماسيانية ، لحلول الروح في الأيام الأخيرة . الروح هو أيضاً القوة التي تربط الشعب بالعهد المقام مع يهوه . وهو النور الداخلي الذي يسمح بفهم الكتب وبتمييز ظهورات الله في التاريخ . بنور الروح وحده يصبح التاريخ تاريخاً مقدساً ، متمحوراً حول عناية الله وإرادته التوّاقة دوماً إلى الخلاص والحياة .

ويجد تاريخ كل إنسان - وليس فقط تاريخ الأمم - في نور الروح والفهم النابع منه ارتباطه الداخلي الأسمى . به تكتسب نفخة الحياة بعداً يفوق الطبيعة ، بعداً متعالياً وشخصياً لحضور الله في أعماق الإنسان ، يدعوه إلى تحقيق ذاته بتجاوز أناه والاستماع إلى دعوة الله ، والتعرّف إلى وجه المسيح ، وبالتالي الحصول على الإرادة والقدرة للإستجابة لهذه الدعوة .

كلنا نتّجه لا شعورياً إلى ضواحي بحر الجليل حيث دُعي صيّادون شباناً وهم يقومون بعملهم الشاق ، دعوا من قبل أحد مواطنيهم بهذه العبارات : « سيروا الى العمق و القوا شباككم للصيد » . وبعد الصيد العجائبي قال لهم الرجل نفسه : « اتبعوني وسأجعل منكم صيّادين للناس » (لو ٥ : ٤ - ١١ ، متى ٤ : ١٨ - ٢٢) . وأمّا العشّار لاوي

(متى) الجالس في بيت الجباية فقد اكتفى بكلمة واحدة : « اتبعني » ، لكي « يترك كل شيء ويتبعه » (لو ٥ : ٢٧ - ٢٨) .

في مكان آخر نرى أن الدعوة تنتقل تلقائياً من الواحد الى الآخر : يدعو يسوع اثنين من تلاميذ يوحنا المعمدان ، أحدهما اندراوس أخو سمعان بطرس قائلا لهما : « تعاليا وانظرا » . وبدوره يأتي اندراوس بسمعان الى يسوع ثم يلتقي يسوع فيلبس ويقول له : « اتبعني » . فيشهد فيلبس ليسوع امام نثنائيل قائلا : « تعال و انظر » (يو ١ : ٣٥ - ٥١) .

وهكذا يتضح استقطاب يسوع للجموع ويذيع صيته بطريقة لا تقاوم، لأن يسوع مملوء من روح الله وقدرته (لو ٤ : ١٤) ويظهر في الجليل كمكرّس من الروح ، كمسيح (لو ٤ : ١٨) ، كلمته نفسها ممتلئة نعمة وسلطان وقدرة (لو ٤ : ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٥ و ٣٦) . يمكننا أن نطيل الكلام على حضور روح الله في يسوع بالاستناد الى تعليمه وأعماله . لكننا سنكتفي بذكر بعض الحوادث الانجيلية التي تؤكد هذا الحضور وتوضحه .

أ ـ حمامة الأردن

تنزل هذه الحمامة من السماء وتستقر على يسوع فور خروجه من نهر الأردن وفي ذات الوقت الذي يُسمع فيه صوت الآب. هذه هي الحركة الأبدية لروح الله المنبثق من الآب الساكن في الابن منذ الأزل. الروح القدس هو روح يسوع. انه يملأه ويُظهره، معلناً إياه للعالم. هذه هي خدمة الروح في الكنيسة: ان يُعلن حَمَلَ الله ويشهد له بقوة ويُظهر الختن... إن إعلان الروح القدس، و زمن الروح يكمنان في إظهار سر المسيح بوضوح وتسليط كل الأنوار عليه.

ب ـ نور «ثابور»

إن نور «ثابور» الساطع، وبياض ثياب يسوع العجيب، وصوت الآب ثانية والغمامة التي تفصل يسوع عن الرسل وتجعلهم يرتمون أرضاً من شدة الخوف، كل هذه الأمور هي نتائج أخرى لحضور الروح. الروح يظهر إذاً في النور الذي يضيء، يوجّه، يلهم، يبهر حتى درجة عدم الإبصار. إنه أيضاً في بياض الثياب الناتج عن مجد المسيح

وبهاء ألوهيته وإشعاع روحه . انه في صوت الآب الذي يسمعه التلاميذ في الروح . إنه أخيراً في الغمامة التي تفصل يسوع عن التلاميذ (في جبل ثابور وفي جبل الزيتون) ، والتي تضع حدّاً للقربى وتتغلّب على جرأة التلاميذ وتملأهم رعبا .

ج ـ التعزية

إنها تعزية يسوع قبل آلامه ، «الوعد» بالروح «المعزّي الآخر (الذي) يبقى معكم إلى الأبد . . . روح الحق ، الروح القدس الذي يرسله الآب باسمي ، سيعلّمكم كل شيء ويجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكم . . . » (يو ١٤ : ١٥ ، ٢٦) . لا بدّ أن يذهب يسوع وكأني به يقول : «من الأجدى لكم أن أذهب ، لأنه إن لم أذهب فلن يأتي المعزّي ، لكن إذا ذهبت سأرسله إليكم» .

ومن ثم يُشاهد ارتفاع يسوع المجيد نحو الآب الذي يبدأ في الآلام ويصل إلى كماله في الصعود : « سأرسل إليكم ما وعد به أبي » (لو ٢٤ : ٤٩) .

بعدئذ نعود إلى نقطة البداية في حديثنا ، أي إلى العنصرة بعد أن نكون قد مررنا بحياة المسيح على الأرض ، هذه الحياة الملأى بالروح وهباته و « علاماته »، وبعد أن نكون قد مررنا أيضاً بالآلام والصليب والازدراء والفقر الأسمى المحقق للهدف المعطى في التطويبات والذي تبقى حياة يسوع المثال الحي الأوحد الحقيقي لتجسيده : « طوبى للفقير بالروح لأن له ملكوت السموات » .

يسوع الذي أطاع الآب حتى النهاية، حتى الموت ، موت الصليب، قاده الروح في صحراء التجربة ، في الفقر والوحدة ، وحدة ابن الانسان اثناء بشارته، كما شدّده امام خصومة شعب اسرائيل المتنامية وفي الآلام والصلب والموت والجحيم .

عندها يشعّ قبل كوكب الصبح نور القيامة من القبر المضبوط، مدحرجاً الحجر الثقيل ، فيضحي صليبُ الخزي والموت آداةً للحياة والمجد، ويصبح القبر ينبوعاً للقيامة . . .

إن القوة الداخلية التي تقطع رباطات القبر الفارغ وتدحرج الحجر ، والفرح الغامر الذي يملأ النسوة الحاملات الطيب والتلاميذ ، والنور الساطع الذي يرافق القيامة ، كل

ذلك يشير إلى حضور الروح ، المستقر على يسوع حتى في الموت ، والذي لا يمكن للجحيم أن تبتلعه . قدرة القيامة هذه ، وبذرة الحياة الجديدة هذه ، والربيع الذي لا يقاوَم الظاهر في عودة الفصول الدائمة ، كل هذه الأمور ليست بشيء أمام الصعود من الجحيم ، و بزوغ النور في الليل الحالك ، وتفجر الفرح والسلام في وسط القلق والحزن والخوف . كل هذا هو أيضاً من الروح القدس ، قدرة الآب الذي يرفع ابنه الحبيب ويمنحه الغلبة على الموت .

إن الفترة الممتدة من القيامة الى العنصرة هي فريدة في تاريخ الخلاص . إنها فترة الخمسين البهيّة الواثقة ، فترة أسابيع الانتظار السبعة التي تنتهي في اليوم الثامن ، اليوم الأول للأسبوع الثامن ، بالعنصرة . تسبق العنصرة إذاً فترة جمود ، فترة تأديب أخير ، زمن انتظار وصمت للخليقة أمام عتبة هذا الدهر الجديد التي تستعد الخليقة كلها والإنسان لعبورها، ولكن بصفة كيانية جديدة هي الكنيسة، وبنورانية جديدة تملأ الخليقة محوّلة إياها من الداخل بطريقة لا تقاوَم .

وإذا كانت حمامة الاردن، كما رأينا، قد أعلنت لنا الحمل

والختن وخادم يهوه حسب مفهوم الأزمنة الماسيانية - وهذه هي خدمة الروح الدائمة أن تكشف لنا وجه يسوع وتوصلنا من خلاله الى الآب - نرى الإبن في العنصرة مرسلاً الروح من عند الآب، مرسلاً المعزّي الساكن فيها بيننا والذي يكوّن حياة الكنيسة بالذات. خدمة متبادلة، شهادة مزدوجة من المسيح للروح ومن الروح للمسيح، بهذا يكمن إعلان إنجيل يسوع الأساسي. عمل مزدوج للآب في العالم بواسطة الكلمة والنفخة، الإبن والروح، «يدي الآب الإثنتين» (القديس إيريناوس) الممتدتين لضمّ الخليقة الساقطة وإعادتها مجددة إلى الآب.

الروح القدس في الإفخارستيا والكنيسة

هذه الخدمة المزدوجة للكلمة والروح، في تهيئة الخلاص في العهد القديم، وفي إتمامه في الإنجيل، ومن ثم تحقيقه وإعلانه في الكنيسة، هي القانون الأساسي والسر الدائم اللذين ترتكز عليهما صحة الكنيسة و اتزانها عبر التاريخ. كل سعي للحدّ من حرية الروح وحصره في الأشكال التاريخية، وكل تأكيد له بطريقة تتجاهل عمل المسيح وحضوره، يساهمان في الإخلال بتوازن حياة الكنيسة، إن في الإتجاه

نحو السلطة الدنيوية ، وذلك بالتشديد على المؤسسات الضاغطة التي تغتصب حرية الشخص أو الجماعة ، وتتمثل بالجفاف الروحي وطمس نور الروح القدس وناره ؛ أو بالسير خلف أنواع مختلفة من أوهام الذين يدّعون الوحي والانخطاف رافضين مبدأ التقليد بالذات كما يرفضون السلطة التسلسلية وأشكال الأسرار.

كل حياة الكنيسة ممتلئة بهذا الحضور المزدوج للمسيح والروح معاً وهذا الإشعاع المشترك لهما . في المرحلة الأولى لحياتنا المسيحية وفي بدء انتمائنا للكنيسة نطعّم بالمعمودية والميرون على فصح خلاصنا وعنصرته ، هذا الخلاص الذي سيتحقق تدريجياً وبصورة متزايدة ومستمرة في حياة المسيحي كلها . إن اجتماع الكنيسة الأسبوعي لإقامة سر الشكر هو العلامة لهذه المعمودية الدائمة التجدد في الروح القدس . فإذا كانت المعمودية تغرسنا في جسد المسيح وتوقظ حواسنا الروحية ، فإن الافخارستيا تعطينا الطعام الجوهري الذي ينمّينا يوماً بعد يوم .

وتصبح الإفخارستيا ، بدورها ، المكان الذي يسطع فيه بأجلى بيان الرباط غير المنظور والخدمة المتبادلة اللذين

للمسيح والروح . غالباً ما تشدد ، في كلامنا عن الإفخارستيا ، على وجه حضور المسيح الحقيقي فيها ، وعلى المناولة التي هي مشاركة في جسد المسيح . هذا التشديد محق وأساسي لكن يجب أن لا نغفل مكانة الروح القدس وعمله في سر الشكر الذي يكوّن الكنيسة ويجعلها تستمر في الوجود والحركة والحياة ، لأن الروح موجود في كل لحظة من لحظات إقامة سر الشكر وعامل باستمرار إذ انه هو الذي يحقق حضور المسيح .

يُستدعى الروح قبل التقديس ليحلّ على الكهنة والشعب ليتطهروا فلا يشكلون بالتالي عائقاً أمام تقديس القرابين الشكرية .

أمّا أثناء التقديس فإن وقت الإستحالة هو وقت استدعاء الروح القدس بالذات : استدعاؤه على الخبز والخمر وعلى الجماعة كلها في نفس الوقت في عنصرة دائمة تستمر في الكنيسة من إفخارستيا إلى إفخارستيا .

وبعد التقديس ، تصلّي الكنيسة لكي يمنحنا الله ثمار الروح ، أي « انتباه النفس ، مغفرة الخطايا ، شركة الروح القدس ، ملء ملكوت السموات ، الدالة (لدى الله) لا

لديونة ولا لقضاء» (صلاة الإستحالة في قداس يوحنا الذهبي الفم).

إن صلاة استدعاء الروح القدس هي موجهة إلى الجماعة كلها تماماً كما هي موجهة نحو القرابين، لأن تحويل القرابين يحصل بغية مناولة المؤمنين. فتكون هذه الصلاة إذاً صلاة من أجل الوحدة (باسيليوس)، لأن الروح القدس هو روح العنصرة حيث «كانوا جميعهم مجتمعين، بقلب واحد ونفس واحدة» (أعمال ٢ : ٤٢). فإن وئام الجماعة الرسولية الأولى يبقى إلى الأبد كأيقونة دائمة لمعنى الإفخارستيا، والقداس يشكل عملاً شكرياً مشتركاً ومشاركة في الحياة الإلهية.

إن صلاة التقديس تصل إلى قمتها في المناولة، فالروح الذي حلّ على القرابين وحوّلها إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين، هو نفسه وبفعل تقديس واحد، يحوّلنا إلى هياكل لروحه المحيي. إننا لا ننبّه أبداً بما فيه الكفاية للخطر الكامن في رفع التقديس من إطاره الثالوثي، وكذلك إبعاده عن هدفه في تقديس الجماعة الكنسية المدعوة إلى أن تتحوّل بكليتها إلى هيكل لحضور الثالوث القدوس الحقيقي المحيي، وإلى «علامة» محبة ووحدة.

من المهم إذاً أن نتذكر دائماً أنه يجب عدم فصل الإفخارستيا عن حياة الكنيسة والبحث في التقديس أو الاستحالة بمعزل عن هذه الحياة التي هي بكليتها إفخارستيا أبدية « تتذكر » فيها الكنيسة عروسها وتقيم تذكار آلامه وقيامته وصعوده ، مشتركة بابتهال رئيس الكهنة الإلهي يسوع أمام الآب ، ومعلنة للعالم بثقة مجيئه الثاني المجيد ، كديّان للأحياء والأموات . تعلن الكنيسة هذا التأكيد البهج عن مجيء وحضور المسيح الناهض المجيد في حضرة الروح القدس وبقوته . إن استدعاء الروح القدس وطلب الجماعة الملحّ الحار أثناء الاستحالة لا يشكلان فقط مرحلة من مراحل الإفخارستيا بل هما قمة المراحل . إنهما بُعْدٌ اساسي في الإفخارستيا وفي حياة الكنيسة كلها . ان استدعاء الروح القدس يعني أن الكنيسة هي في تصرف هذا الروح وانها تعيش في طاعة متجددة كاملة محبّة لروح الله المحيي . يتحقق لقاء الكنيسة مع المسيح الممجد الذي يُحضره الروح ويمثله فيها حسب وعد المخلص، عندما تكون الكنيسة في هذا الاستعداد التام وهذا الصمت.

لكن خبرة الكنيسة الليتورجية والروحية تدل على أنه لا

توجد استحالة واحدة ولا استدعاء واحد فقط للروح القدس، بل هنالك استحالتان مختلفتان لكنهما لا تنفصلان أبداً: الأولى تكمن في طلب الكنيسة، جسد المسيح، الملح لحلول الروح القدس وهي الشكل الكلاسيكي لاستدعاء الروح، أمّا الثانية فهي استحالة متعلقة بالمسيح، حيث تعلن الكنيسة، هيكل الروح القدس، للعالم مجيء المسيح الرب، مع انها تنتظر هي أيضاً هذا المجيء وتستدعيه: « ماراناتا، تعال أيها الرب يسوع».

تتمثل الكنيسة، عندما تستدعي الروح، بالمسيح الكاهن الأعظم، وتتحد بصلاته الكهنوتية، صلاة آلامه ومجده السماوي. وتشترك أيضاً بخدمة الصلاة السماوية التي يرفعها يسوع للآب من أجل العالم. بفعلها هذا تغدو الكنيسة مكان حضور روح الآب، المعزّي الذي يظهر عطف الآب للبشر ومصالحته معهم.

وبتقبّلها الروح القدس في أعماقها، تمتلىء الكنيسة صميمياً به من خلال كثرة مواهبه بحيث أن الروح نفسه « يشفع لنا عند الله بأنّات لا توصف» (رو ٨ : ٢٦)، ويجعلنا « نصرخ إلى الله يا أبّا الآب ويشهد مع أرواحنا أننا أبناء الله» (رو ٨ : ١٥ - ١٦). وهكذا فإن الروح ينتظر

مجيء الرب يسوع ويشهد له بأن . بالروح القدس تصبح الكنيسة عروساً ، مزيّنة ببهائه ، ملهمة منه وملتهبة به ، في انتظارها بفارغ الصبر مجيء المسيح يسوع وعودته إلينا : « يقول الروح والعروس : تعال . من سمع فليقل : تعال . من كان عطشاناً فليأت ، ومن شاء فليأخذ ماء الحياة مجاناً . . . يقول الشاهد بهذه الأمور : نعم ، أنا آت سريعاً . آمين . تعال ، أيها الرب يسوع » (رؤيا ٢٢ : ١٧ ، ٢٠)

إن كل ما في الكنيسة يتصف بهذه الوساطة المزدوجة ، وساطة الابن في الروح ، والروح في الابن ، و بهذا الحضور الحقيقي المزدوج للرب يسوع والمعزّي ، وبهما ومن خلالهما يتوق إلى ملاقاة الآب ، مصدر الشركة الثالوثية ومرجعها .

يوجد في الكنيسة توازن أساسي ، يبقى غير مكتمل وبحاجة دائمة إلى التجدد ، توازن بين مبدأ التقليد ، والطاعة ، والنظام ، والأشكال « السرّية » [1] والليتورجية من جهة ، وبين الحرية ، والابداع ، والمسؤولية الخاصة والإستقامة التي لا تحُد لكل شخص بشري وكل جماعة

(١) نسبة الى سر وأسرار.

محلّية من جهة الأخرى . توازن بين التقليد والنظام والنعمة الإلهية التي تعطي الأشكال والأمكنة والأزمنة مضمونها الداخلي وتؤمّن علاقة عامودية وحيدة بين الشخص والله ، بين الجماعة المحلّية المجتمعة والسيّد . بهذا المعنى نقول إن على إلهام الروح القدس أن يتجدّد دوماً ولا يمكن أن يقنّن بالأطر والأشكال علماً أنه يتجسد فيها . الحقيقة دائمة الحياة لا تنحصر أبداً وبالكلية بالتحديدات العقائدية وقوانين الايمان التي تعبّر عنها .

كل سعي لإخضاع الروح للسلطة البشرية ، حتى لو كانت سلطة تمثل المسيح أو تقوم محلّه ، يشكل تجاوزاً لصلاحيات الرئاسة الكنسية المشروعة ، ويخلق إخلالاً بالتوازن القائم في حياة الكنيسة الداخلية ينتج عنه انزعاج عميق و ردّات فعل عكسية ، إن على صعيد وحدة الكنيسة الداخلية بواسطة المواهب النبوية التي ينبتها روح الله في العلمانيين لكونهم مشتركين بواسطة المعمودية بكهنوت الكنيسة الملوكي والنبوي ، أو على صعيد وحدة الكنيسة الخارجية نتيجة الإنشقاقات التي تهدم وحده جسد المسيح التاريخية المنظورة وتجعل المنشقين يسيرون بموجب قوانينهم

الخاصة ، منفصلين بذلك عن جسم الكنيسة وبالتالي ، ينقصهم ملء الإيمان وأساليب التقديس التي فيها .

على كل تعليم قويم عن الروح القدس أن يؤمّن التوازن بين الإكليروس والعلمانيين في مشاركة في الخدمة فريدة حول المائدة الإفخارستية ، ويعيد لرتبة العلمانيين المقدسة الشعور العفوي بمسؤوليتها الكاملة عن الكنيسة وحياتها وشهادتها ورسالتها ، وحتى عن إيمان الكنيسة نفسه ، وعملها التقديسي .

تُمارَس سلطة الأسقف والرئاسة الكنسية الرسولية في إطار خدمة العلمانيين هذه الكاملة .ان هذه السلطة تفترض قبولا حراً من قبل شعب الله . وبقدر ما يكون للعلمانيين مسؤولية حرّة في الكنيسة تكون سلطة الأسقف حقة كاملة على الكنيسة ـ هذه السلطة هي للخدمة وتُمارس في التواضع والمحبة والفقر والتمثل بالصغير والفقير كما فعل الراعي الصالح وكما فعل السيد حين غسل أرجل تلاميذه.

إن صلاة الكنيسة هي ، بدون شك ، صلاة الرسل وخلفائهم ، لكنها ، قبل كل شيء ، صدى لصلاة يسوع السماوية التي يهبها الروح ويشهد لها ويكون هو نفسه

عربوناً لها . ولكونه موضوع صلاة المسيح الممجد السماوية ، فالروح هو أيضاً موضوع (وفاعل) صلاة الكنيسة كلها . يميّز مفهوم الاستحالة وعلاقة الطاعة والارتباط الكليين جسد المسيح بكليته، في وحدانية كهنوت الكنيسة الملوكي الواحد.

أمّا الرسل وخلفاؤهم فهم وحدهم مؤهلون ليس للصلاة بل لإقامة صلاة الكنيسة المشتركة ، ولتأمين استمراريتها عبر الزمن وخدمة هذه الإستمرارية ، علماً أن استحالة الكنيسة الدائمة الجماعية ، و انفتاحها على الروح القدس و انتظارهاله ، تحدد معنى « رسوليتها » وخلافتها التسلسلية بالمقدار نفسه الذي تنتج عنها .

إن كلمة الله يجعلنا نتأكد من حضور الروح في مكان ما ويعطينا أن نتعرّف إليه بواسطة موهبة تمييز الأرواح . لكن هذا لا يمنع الكلمة أن يُخضع الروح للرئاسة أو المؤسسات . لا يزال الروح القدس ، حتى في أيامنا هذه ، يُظْهِر مواهب نبوية قد يدخل أصحابها في صراع مع الرئاسات الروحية القائمة التي لا تتحلّى بالعصمة[1]. فيدعون تلك الرئاسات إلى

(١) إذ لا عصمة في الكنيسة لأي شخص مهما سما مركزه ، بل العصمة هي للكنيسة وحدها (الناشر).

التوبة أو ينقلون إليها حكم الله . وروح النبوّة هو في صميم الكنيسة بقدر ما هو الكهنوت الملوكي في صميمها ، بل قل إنه يشكّل أحد العناصر الأساسية للمسحة الكهنوتية التي وهبها الروح القدس للكنيسة في العنصرة والتي لا يمكن تغييرها . روح النبوّة علامة مميّزة لأصالة وجود الروح وحضوره السيّديّ الدائم . الروح القدس هو روح نظام بيد أن النظام الإلهي لا يتطابق دوماً وفي كل شيء ونظام الرئاسة الكنسية على الأرض.

الروح القدس في الإنسان

أ ـ قبل أن يكون الروح القدس هدف صلاتنا ومبتغاها، هو مصدرها وقوتها ودافعها والموحي بها . انه ، كما نقول ، الذي يصلّي فينا ويتضرع إلى الآب من أجلنا : « يهبّ الروح أيضاً لنجدة ضعفنا ، فنحن لا نعرف كيف نصلّي كما يجب ، ولكن الروح يشفع لنا عند الله بأنّات لا توصف . . . هذا الروح يشهد مع أرواحنا أننا أبناء الله ويجعلنا نصرخ إلى الله : يا أبا الآب » (رو ٨ : ٢٦ ،

١٦) . الروح القدس هو المؤدّب الأعظم الذي يشجع الانسان بدون ملل في سعيه إلى الحوار مع المسيح والشركة معه وبواسطته مع الآب .

ب ـ الروح القدس هو أيضاً موضوع الصلاة والجهاد الروحي . ان هدف الحياة المسيحية ، كما كان يقول القديس سرافيم ساروفسكي ، يكمن في اقتناء الروح القدس[1] .

في إحدى النصوص البديلة لإنجيل لوقا التي يذكرها القديس غريغوريوس النيصصي نجد بدلاً من عبارة « ليأتِ ملكوتك » الواردة في الصلاة الربّانية الكلمات التالية : « ليأت روحك القدوس علينا ويطهرنا » (لو ١١ : ٢) . هذا يعني أن طلب مجيء ملكوت الله يوازي طلب حلول روح المسيح . وينتج من هذا الإقرار الكثير من التأكيدات التي سبق وذكرناها عن الروح القدس . فيكون استدعاء الروح القدس الصلاة الشاملة الواثقة التي تصل ، بعيداً عن كل كلام ، إلى صمت المحبة .

---

(١) راجع سرافيم ساروفسكي ، سلسلة « القديسون » رقم ١ ، منشورات النور (الناشر) .

ج ـ المسيحي يوجّه أيضاً صلاته إلى الروح القدس . يمكننا القول إن الصلاة للروح القدس هي الصلاة من أجل الصلاة ، الدخول في وضع صلاة ، وتوجيه ذواتنا نحو الحوار .

د ـ وأخيراً ، فإن الروح القدس هو القوة الداخلية التي تثير الدعوات الى الخدمة والتكريس في الكنيسة . انها توقظ الشوق الى الله في داخل الطفل ، تسمعه نداءه بتأنٍ وثبات وتعطيه الرغبة في الخدمة الكهنوتية وتذوّق الكنيسة وتجعله يختبر في داخله الفرح الناتج عن العيش في حضرة الله . فإمّا أن يقترب هذا النداء ويقوى أو انه يبتعد ويتلاشى . . .

كما يمكن هذا الريح الوديع الخفيف أن يتحوّل الى عاصفة ، ولهذا النور الخافت أن يتأجج تأججاً رهيباً . انه موجود في كل إنسان ، مسيحياً كان أم وثنياً . يعمل فيه دائماً ساعياً أن يوجّهه إلى الصلاح ، إلى اكتشاف أفضل ما عنده من إمكانيات ، إلى السعي إلى الحق وعيش المحبة . يفتح عينيه لمعرفة المسيح ومحبته ويوقظ فيه إيمانه النائم ويقوّيه ويرشده إلى الطريق .

الروح القدس يعمل للوحدة باستمرار . والوحدة هي القوة الداخلية التي تدفع الى النمو ، وتقرّب وتجمع كل ما تفرّق .

إعادة اكتشاف الروح القدس في الوحدة

واليوم تكتشف الطوائف المسيحية كلها مجدداً معنى الروح القدس . بعد العودة التي حصلت من قبل الأجيال التي سبقتنا ، إلى المصادر الكتابية والآباء والليتورجيات القديمة ، وبمعنى آخر العودة إلى روح الكتاب المقدس والآباء والليتورجيا ومعناها الجماعي و ارتباطها الداخلي ورموزها الأصلية الواقعية ، وبمقدار ما نستلهم هذه المصادر ونتعمق في دراستها ، يظهر الروح القدس ويشرق منيراً كل شيء واهباً السلام وموحّداً جسد المسيح كله ، شافياً جسم المسيحية الممزق .

إن الأدب المسيحي المعاصر عند الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس على حد سواء يذخر بالأعمال المختلفة الأحجام والمستويات عن الروح القدس . كذلك كثرت في الآونة الأخيرة المؤتمرات المسكونية والحلقات الدراسية ، واللجان المختصة والرياضات الروحية للكهنة والطلاب الإكليريكيين

والعلمانيين حول موضوع الروح القدس. ان هذه الظواهر كلها تثير الانتباه لا سيما وان الروح القدس كان حتى الأمس القريب «المجهول الأكبر»، «هذا الذي لم يحسن أحد التحدث عنه، والذي يبدو كل كلام فيه فارغاً...» كما قال احد الخبراء الكاثوليك في المجمع الفاتيكاني الثاني.

كل ما يجري في روما أو جنيف بهذا الصدد يهم الأرثوذكسيين إلى أقصى حد...، إذ أن تجدد الاهتمام بالروح القدس لا يمكن إلاّ أن يعمّق لدى المسيحيين الغربيين المفاهيم المتعلقة بالمجمعية ودور العلمانيين في الكنيسة، وموضوع زواج الكهنة، ومعنى الكتاب المقدس، ومكانة السلطة وحدودها في الكنيسة الخ...، وهذه كلها مواضيع لا يتفق المسيحيون على تفسيرها أو طريقة عيشها...

... تجدر الملاحظة هنا أن هذه المواضيع تطرح نفسها بإلحاح متزايد على ضمير الكنائس الأرثوذكسية ذاتها، لأن فهمها «اللاهوتي» العميق لحقيقة الروح القدس ودوره الأساسي في حياة الكنيسة، لا ينطبق في كثير من الأحيان على واقع ممارساتها، إن على صعيد النظام والإدارة، أو على صعيد

حياة الاسرار ، أو فيما يتعلق بالفهم الكياني لعقيدة الثالوث والروح القدس على مستوى الحياة العملية والخبرة الليتورجية والروحية .

إن أي رفض جازم بإعادة النظر في أوضاعها القانونية و« اللغة » التي تخاطب بها عالم اليوم ، وممارساتها الليتورجية ، يعني أن الكنيسة الأرثوذكسية قد وضعت نفسها خارج حركة التجديد العارمة التي تعمّ ، بإلهام من الروح المحيي ، سائر العالم المسيحي . وأنها بالتالي ، تنكفىء متقوقعة على ذاتها تدغدغها حقيقة وجمال عقيدة خالية من الإشعاع تفتقر للحيوية والرجوع الى الينابيع .

إعادة اكتشاف معنى الروح القدس يعني بالنسبة للأرثوذكسيين أن يصبحوا ، أكثر فأكثر ، هياكل الروح والأقنية التي يشع من خلالها ويتعداها باستمرار ليهبّ في العالم حيثما يشاء ، فيؤمن العالم بالمسيح ، ويتعرّف إلى وجهه مكتشفاً فيه الطريق والحياة والحق . الروح القدس يدعونا إلى المسيح ، والمسيح بدوره يهبنا الروح في عنصرة محبة مستمرة نحيا فيها ونطلب باستمرار انسكابها على الكنيسة وبها على العالم .